الصيد البحري بالسواحل المغربية في العصر الوسيط

د. محمد بن عميرة
قسم التاريخ
جامعة الجزائر

يرى Vonderheyden أن محاولة كتابة مقال حول الصيد البحري، ببلاد المغرب، في العصر الوسيط، تبدو مجازفة، لأن الكتاب العرب القدماء لم يزودونا سوى بمعلومات شحيحة عن الموضوع، ولأنه يحتمل ألا يكون، في الواقع، كلام كثير يمكن أن يقال فيه، لاعتقاده أن الصيد البحري والصناعات البحرية، على العموم، لم تزدهر في العصر الوسيط، سوى في أماكن محدودة حيث كانت الأساليب (lesprocédés) أجنبية وربما كان المستخدمون أيضا أجانب من أصول بونيقية أو أندلسية[1].

والإنسان البربري، حسب رأيه، لا يميل من تلقاء نفسه، لأشياء البحر، مستشهدا بقولGsel.S فيما كتبه عن "تاريخ إفريقيا الشمالية القديم" : من أن الأهالي (Les Indigènes) لم يتعاطوا الصيد البحري بكثرة، عندما كانت بلادهم مستقلة، وقد انجّر عن وصول الفينيقيين، ثم الرومان بعدهم، تطوير كبير، إن لم نقل إنشاء مصائد على السواحل المتوسطية لإفريقيا الشمالية، ويشك Vonderheyden أن

يكون قد نتج عن الفتح العربي (conquête arabe) توسيع تلك الإنشاءات أو الاحتفاظ بها، على الأقل، فالقرى الفلاحية لم تَخلُ بطبيعة الحال، لكن الصيادين، على ما يظهر، وجدوا صعوبات في بيع محصول صيدهم[2] غير أن ما يبدو للمتأمل، في مثل هذا الكلام، هو أن صاحبه يريد أن يقول بأن البربر، دائما، في حاجة إلى أجانب، من غير العرب للقيام بالأمور الصعبة، وتطوير أنفسهم، فكأنه بهذا يحاول تبرير التواجد الاستعماري الفرنسي في بلادهم.

ويبرر نفي المؤلف ذلك بعدة أسباب، أولها : السبب الغذائي القاضي بان البربر لا يتذوقون كثيرا لحم الأسماك، وحجته على ذلك، ما يمكن ملاحظاته، في أيامه، من أن السكان القبائل القريبين جدّا من موانئ الصيد أو مراكز تجمعات الأوربيين (المستعمرين) المموّنة جيّدا بالأسماك الطرية، يجهلون طريقة طهيها ويحاول تفسير هذه الظاهرة بعدة افتراضات، منها، كما يقول، التوجه الإسلامي (Le souci musulman) المتمثل في عدم أكل لحم الحيوانات غير المذبوحة، مع العلم أنه لم يكلف نفسه، هنا، بالاطلاع على مصادر الفقه الإسلامي في شأن قضية ذكاة أو ذبح الأسماك.

ويرد ثاني تلك الأسباب إلى وجود ممنوعات طوطمية، قديمة جدا، دون أن يبحث عن آثار تلك الممنوعات المحتملة أيضا، والسبب الثالث يكمن، حسب رأيه، في كره البربر الغريزي وعدم تعودهم على أكل لحم الأسماك، ويستمد Vonderheyden دليله "الكافي" من

أن عُرف استهلاك الأسماك لم يكن جاريا في المجتمع البربري القديم، اعتمادا على كون الأهالي (indigènes) في وقته (فترة الاستعمار الفرنسي بالجزائر) لا يقتاتون بالأسماك إلا في بعض القرى (Bourgs) التونسية المعروفة (façonnées) بتقاليد بحرية ؛ أما العرب، في نظره، وبالخصوص أولئك الذين قدموا للسكن بإفريقية، فهم أقل تذوّقا للسّمك، إضافة إلى كونهم استقروا بداخل البلاد[3] ؛ ولعل أقل ما يمكن قوله في مثل هذه الآراء والأحكام أنها تتميز ببساطة ملحوظة، خاصة ما يتعلق منها بالحكم (التعسفي) على أذواق الغير، فالموضوع، إن ثبتت صحته، يتطلب بحثا معمقا يأخذ بعين الاعتبار عوامل علمية كثيرة.

وحسب نفس المؤلف دائما، فالسوق الداخلية، بما فيها القريبة من السواحل، يبدو أنها كانت دائما مغلقة في وجه منتجات الصيد، مستشهدا مرة أخرى بقول .Gsell s من أن ورشات التمليح الفينيقية لم يكن في استطاعتها بيع منتجاتها لمختلف القبائل (tribus)، مضيفا أن بعض الورشات لتي استمر وجودها في العصر الوسيط، لم تتمكن من توسيع سوقها، بدليل قول الرحالة Marmol، في القرن السادس عشر "تصطاد أسماك كثيرة بدلّس لكن الصيادين كثيرا ما يلقونها في البحر، لأنه لم يُقْبل أحد على شرائها"[4]. مع ملاحظة أن Vonderheyden لم يأخذ بعين الاعتبار القصد من قول Marmol هذا ومَن سبقه من المؤلفين، وهو وفرة صيد الأسماك بحيث رجّح العرض على الطلب، وفي مثل هذه الحالات، ما

زال، في أيامنا، وعلى مستوى كل موانئ الصيد البحري حدوث مثل هذه الظاهرة : وهي أن يُلقي الصيادون بالفائض من أسماكهم في البحر حتى تكون غذاء لأسماك يصطادونها فيما بعد، ولكي لا تبقى في المرافئ وتتحول إلى قاذورات ملوِّثة للبيئة، خاصة إذا انعدمت ورشات تجفيفها، لنقلها، فيما بعد، إلى الأماكن البعيدة ولا نتفق معه في اتخاذه هذا الأمر الذي كان يحدث في دلس، آنذاك، بصفة خاصة، دليلا على غلق السوق الداخلية، بما فيها القريبة من الساحل، في وجه منتجات الصيد البحري.

ويقول Vonderheyden، من جهة أخرى : إنّ البربر لا يحبون كثيرا البحر كذلك، مبررا رأيه هذا بما ذكر Bernard A. في مقال عن عواصم في بلاد البربر في (Recueil des mémoirs) وهو أن " البربر كانوا دائما ملاحين رديئين (Piètres)، والماء ليس بيئة لهم، فهم يخشونه ولا تعرف غالبيتهم صناعة ولا يوجد مركب تجاري" ويعزز Vonderheyde فكرته بما نقله وترجمه Brunot M. من مَثَلٍ بربري في كتابه" البحر في تقاليد وصناعة الأهالي، ط. الرباط- سلى، ص. 241 "ومعناه أن "من دخل البحر (أي سافر فيه) ينبغي أن يعتبر نفسه ضائعا، ومن خرج منه (وصل الميناء) يولد للمرة الثانية" ثم إن الفاتحين العرب الذين عدلوا شيئا فشيئا، خلال العصر الوسيط، مظهر المغرب، كانوا شيئا آخر إلا بحارة[5] والواقع أن المنطق السليم لا يقبل كلاما كهذا، لا يقوم على أي أساس علمي بالإضافة إلى ما تُشتمّ فيه من رائحة ازدراء الغير، والغرور بالنفس.

والجدير بالملاحظة أن Vonderheyden يناقض نفسه في تعليق كتبه في هامش 2، صفحة 5، من مقاله، جاء فيه : إن الأفارقة، ويلاحظ هنا أنه تفادى التسميات التي سبق له وأن استعملها، وهي البربر أو العرب أو الأهالي (Indigènes)، وكأنه يتحدث عن أناس آخرين، المهم أن هؤلاء في نظره، يَظْهرون في أوقات استثنائية نشيطين جدا على البحر، خلال العصر الوسيط، ومن المعروف أن البربر المحاطين بالعرب، على حدّ تعبيره، فتحوا (Conquirent)، في القرنين الثامن والتاسع إسبانيا وجزر البليار وصقلية وسردينية ووصلوا شواطئ البروفانس (provence)، وأن الأمراء الأغالبة الذين كانوا يحكمون البلاد التونسية (Tunisie)، في القرن التاسع، كانوا يسيطرون على البحر، في منطقة مضائق صقلية ولكن تبقى علينا معرفة ما إذا كانت شمال إفريقيا تُقدِّم شيئا آخر غير المسافرين، وما إذا لم يكن البحارة من الروم المعتنقين للإسلام، وقد كانت دُورٌ لصناعة السفن في تونس وبجاية، ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، أخذت بلاد البربر تتخلّى شيئا فشيئا عن نشاطها البحري، ودخل المسرح البحارة النرمان ثم الجنويون وغيرهم، غير إن أسرة الحماديين الصغيرة احتفظت بأسطول للتجارة أو القرصنة، كما اشتهرت، فيما بعد، أساطيل مدينة الجزائر التركية ولكن قراصينها وربما قراصنة تونس وبجاية إلخ... كانوا أناسا جاءوا من الخارج ومهما يكن، فما هي سوى بحرية نقل تجاري أو قرصنة، والأمر لا يعني أسطول صيد بأعالي البحار (hauturière).

ويلاحظ هنا أن Vonderheyden، على الرغم من تقديمه بعض المعلومات الدّالة على وجود نشاط بحريّ في سواحل بلاد المغرب المتوسطية إلاّ انه يبقى مصرًّا على تجريد البربر، ومعهم العرب، من كل قابلية لممارسة الملاحة البحرية، دون أيّ تبرير ؛ (مَعْزَة ولَوْ طَارَتْ).

ويرى Despois J. أن ظروف الصيد كانت، في جملتها جيدة، بما فيه الكفاية، وخاصة في طرفي شمال إفريقيا (بلاد المغرب) ولكن السكان البربر، حسب رأيه صرفوا النظر (ignoré) عن البحر مدة طويلة ولا يظهر أن الأمر كان دائما هكذا : فعندما كان لبعض أمراء المغرب أسطول، خلال القرون الماضية، لم يكن اعتمادهم، على البحارة المشارقة والأجانب وحدهم[6] وكلام Despois كما يلاحظ لا يختلف في مضمونه عن كلام Vonderheyden.

وفي رأي Rosenberger B. فإن الإمارة الزيرية، على سبيل المثال عرفت عدّة موانئ منتعشة، كان الصيد البحري بها نشيطا، ومن بينها عنابة[7] وهذا يتناقض مع ما ذهب إليه Souville G. من أن البحر لم يستمل أبدًا سكان شمال إفريقيا وأن ممارستهم للصيد البحري أو الملاحة لم تكن سوى ممارسة ثانوية، وما زال، في نظره، أغلبية البربر يعرضون عن البحر حتى في ايامنا، ويلاحظ أن ممارسة العدد القليل منهم للصيد البحري هو أقرب إلى الالتقاط (Cueillete) منه إلى الصناعة[8] ويفسر ذلك بقلة ميلهم إلى هذه الحرفة وليس لقلة

استعدادهم لها[9]، بدليل أنّهم يشكلون اليوم (في منتصف القرن العشرين) الأكثرية في فرق الصيد[10].

وينسب Vonderheyden ذهنية النفور من البحر إلى الجزائريين، بصفة خاصة، ذاكرا أن السيد. Bernard A يردها إلى رداءة الظروف الجغرافية حيث أنها قليلة الملائمة لبروز حضارة بحرية والوضع في تونس يختلف إلاّ أن الأمزجة العربية – البربرية هي نفسها. مع الإشارة إلى وجود مجموعات عائلية، في عدة نقاط ساحلية مرتبطة جدا بأشياء البحر، تعيش من الصيد البحري، منذ زمن طويل، ربما، منذ العهد الفينيقي، وهم غير مستعدين للتخلي عنه[11].

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، عند الاطلاع على ما كتبه Vonderheyden وغيره حول الجانب الإنساني من ظروف الملاحة في شواطئ المغرب، في العصر الوسيط هو : لماذا لم يُدخل هؤلاء هذا الموضوع، في إطار ظروف الملاحة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط بضفتيه، الشمالية والجنوبية، وهذا من شأنه أن يوفر عنهم، بدون شك، جهدا كبيرا يبذلونه في القيام بافتراضات، كثيرا ما أبعدتهم عن الموضوعية ؟

والمعروف أن ظروف الملاحة في المنطقة الغربية من حوض البحر الأبيض المتوسط، لا تلائم النشاط الإنساني في كل جهاتها، بما فيها الضفتين الشمالية الأوربية والجنوبية المغربية، لأن المواقع المرفئية الجيدة نادرة بها : فمصبات الأنهار الكبرى، التي يمكن أن

توجد، لا تسلك إلا بصعوبة، بسبب التغرّن النهري، والقطاعات الرملية الواسعة تشكل شواطئ بحيرية (lagunaires) متغيرة جدا، في حين أن الشواطئ الصخرية كثيرة الصعوبة للتهيئة، من جراء الأعماق الهائلة المحيطة بها ؛ ومن جهة أخرى فإن ظروف الأحوال الجوية غير مستقرة عادة، والأعاصير التي تصيب الحوض الغربي المتوسطي يمكن أن تبلغ درجات من العنف تجعل ركوب البحر ممنوعا لعدة أسابيع[12].

فتنمية موارد البحر تفرض، في البداية، التزامات قاسية جدا على الانشغال الإنساني، فليس غريبا إذًا أن يُرى، خلال التاريخ، فرقٌ واضح جدا، يحدث بين السكان المهتمين بتنمية الموارد البحرية وسكان الريف، وهكذا تم احتلال الحوض الغربي من البحر المتوسط بواسطة جماعات صغيرة انتشرت عبر آلاف كيلومترات الساحل، ليس لها سوى علاقات ضعيفة مع الداخل، لكنها حافظت فيما بينها، على علاقات وثيقة جدا، إضافة إلى أن السكان الريفيين نزحوا عن الساحل، في غالب الأحيان، ولم ينشغلوا بتنمية موارد البحر إلاّ نادرا، في بحيرات شاطئية معزولة، وبقي الصيادون إذا في عزلة تامة، وفي صراع مع صعوبات معتبرة للحفاظ على تماسك ووجود مجموعاتهم السكانية التي تفصلها عن بعضها، أحيانا، مسافات هامة جدا، ومن ثمّ، فإن نشاط الصيد البحري لم يكن سوى امتداداً للمستعمرات القديمة التي استمرت إلى يومنا (منتصف القرن العشرين)[13].

تلك هي وضعية الصيد والصيادين في كامل الحوض الغربي للمتوسط، ولا يمكن القيام بدراستها في منطقة محدودة دون أخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار، ومن ثمّ فإن معظم الآراء والافتراضات التي أدلى بها بعض دراسي هذه المسألة في سواحل بلاد المغرب الشمالية، في العصر الوسيط يحتاج الأمر فيها إلى إعادة النظر، مع اعتبارها، أولا وقبل كل شيء، جزء من كلٍّ، بمعنى أنه لا يمكن دراسة الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط بمعزل عن بقية أنحائه، وهذا ينسجم تماما مع رأي Doumenge M.F. القاضي بان " فهم حياة الصيادين في حوض البحر الأبيض المتوسط يحتاج، قَطْعًا، إلى تصوّر مشاكل الحوض بكامله، على مستوى الموارد التي توفرها المياه، وفي نفس الوقت على مستوى التقنيات التي تمكن الإنسان من تنظيمها للاستغلال"[14].

ولا يعرف على أي شيء اعتمد Vonderheyden فيما ذهب إليه في قوله بان عدد صيادي السمك الأفارقة، في العصر الوسيط، يبدو للوهلة الأولى قليلا، وأن آلات صيدهم كانت بدائية، ومعرفتهم بأشياء البحر رديئة، وأن جزء كبيرا من التقنية الحالية، وكذا بعض أسماء الأسماك مشتقة من اللاّتينية (Romane) وسنرى، كما يضيف، أن رداءة الآلات، إضافة إلى نقص الخبرة الملاحية، تفسران أن الصيد، في عرض البحر، كان معدوما، إذ كان الاكتفاء بالعمل في البحيرات الأجاجة بمصبات الأودية والخلجان الصغيرة المحمية، وفي المناطق التونسية حيث الرصيف القاري مغطى ببضعة

أمتار من الماء، مع اعترافه في آن واحد، بأن ما وصلته من المعلومات الخاصة بما كان يجري في عالم صيادي البحر الأفارقة (المغاربة)، ما بين القرنين السابع والسادس عشر الميلاديين(2هـ- 10هـ) قليلة جدا[15] مما لا يسمح له، بطبيعة الحال، من إصدار مثل هذه الأحكام المجحفة، خاصة وأن المعلومات القليلة، التي يشير إليها، تفيد بازدهار الصيد في عرض البحر، بالفعل، في أماكن كثيرة من السواحل المغربية : ومنها : سواحل جزيرة جربة والقالة وبجاية وسبتة.

وإذا كان لـ Vonderheyden الحق فيما قاله من أنه لا يعرف أي شيء عن تنظيم نقابات الصيد، إنْ وُجدت، وأنه لا يعرف جيدا تلك المجموعات الشاطئية (riverains) المتخصصة في صناعة يستحيل تسميتها بالوطنية، فإنّه لا يُرى أيُّ مبرر لما ذهب إليه في قوله : إن الصيادين المغاربة، على ما يبدو، لم تكن لهم علاقات كبيرة مع الجنس المحلي (البربر) وهو يفترض أن صيادي السواحل التونسية من سلالات قديمة جدا من المغامرين الفينيقيين، وأما صياد والسواحل الجزائرية التي أهملها البونيون، في نظره، فهي لم تنشط قليلا إلا بعد وصول المغامرين الأندلسيين الذين تحدثت عنهم المصادر العربية، مستشهدا بما ذكره البكري من أن بحارة أندلسيين تعوّدوا على قضاء فصل الشتاء في ميناء تنس التي عُمّرت في نهاية الأمر سنة 875م بجاليتين أندلسيتين : إحداهما من ألبيرة (Elvira) والأخرى من مرسية (Murcie)، كما ترددت جماعة أخرى من البحارة الأندلسيين على وهران وأسست مدينتها سنة 903م، وكان يسكن مدينة مرسى

الدجاج، القريبة من دلس أندلسيون كذلك، وباختصار، يضيف Vonderheyden، يبدو أن عائلات الصيادين والبحارة كانت أجنبية (exogènes) وأن طرق الصيد وذوقه جلبت قديما إلى افريقية البونيين، وحديثا الأندلسيين[16] ويحاول نفس المؤلف تدعيم رأيه هذا بما نقله عن Gsell S. من أن إسباني قادس (Gadès) استغلوا السواحل الإفريقية المغربية[17].

والسؤال أو الأسئلة التي يمكن طرحها على Vonderheyden هي "هل إن قدوم الأجانب الذين تحدث عنهم واستقرارهم بمناطق من بلاد المغرب يعني أن تلك المناطق كانت خالية من السكان ؟ وهل أن هناك ما يثبت أن أولئك السكان، إن وجدوا، لم يكن لهم نشاط بحري ؟ وهل هناك ما يثبت عدم التعايش والاندماج بين أهل البلاد المغاربة وبين المهاجرين إلى بلادهم ؟ وهل ؟ وهل ؟ وهل ؟

مع العلم أن Vonderheyden، لم يعمد إلى توثيق كلامه، فهو مجرد رأي شخصي، يقضي بأن البربر ليس لهم ذوق للصيد البحري ولم يعرفوا طرق ممارسته، حتى وإن كان الحق إلى جانبه، في استقرار الفينيقيين قديما والأندلسيين حديثا في بعض نقاط سواحل المغرب، والنصوص تدعم هذا الأمر، فإننا نتساءل عن مصدر فكرته التي تجرّد البربر أو الأهالي، كما يسميهم، من تذوق الصيد وجهلهم لطرقه ووسائله، فهل يحتاج هذا المؤلف إلى من يقول

له : إن كتابة التاريخ تقوم على التوثيق وإظهار الحجج، ولا تقوم على الأفكار المسبقة ؟

علما أن المصادر العربية زودتنا بمعلومات كثيرة في موضوع الصيد البحري والصيادين، من ذلك أن الحسن الوزان ذكر، في حدثه عن حصن المحرس الذي شُيّد في عهده (ق 16م)، على بعد خمسين ميلا من جزيرة جربة" أن الكثير من سكان هذه الأخيرة كانوا يعملون، آنذاك، في السفن والصيد البحري"[18] أي أنهم كانوا يمارسون الصيد في السفن ومما لا شك فيه أن تلك الحرفة لم تكن وليدة تلك الأيام وإنما كانت قديمة الوجود ويبقى التعرف على تاريخ نشأتها مرهونا بما قد تطلعنا عليه الوثائق في المستقبل.

ومن جهته أورد أبن حوقل (ق 4هـ/ 10م) أن أهل صفاقس كانوا يصطادون الأسماك بكثرة بواسطة حظائر يزربونها[19] وهي، حسب Vonderheyden، عبارة عن آلات (engins) تناسب الصيد في المياه الراكدة، من مصبات الأنهار، وفي الجهات المحمية القليلة العمق، والحظيرة (Gords)، حسب هذا الأخير عبارة عن نطاق من العصي الطويلة (enceinte de perche)، يصعب على الأسماك التي تدخلها الخروج منها[20] مع العلم أن ابن حوقل لم يشر بهذه المناسبة إلى تسمية الزروب المعروفة في أماكن متعددة، كما يقول Vonderheyden[21] بل استعمل عبارة "حظائر يزربونها"، وقد أطلق الحسن الوزان تسمية الأشبرس (Spares) على أهم سمك كان يصطاد هناك موضحا بان

هذه التسمية ليست لاتينية ولا بربرية ولا عربية[22] ومما ذكره الإدريسي (ق 6هـ/ 12م) في نفس الموضوع، أي الصيد في صفاقس، أنه كان يمارس " بضروب حيل"[23] أي بتقنيات خاصة.

ولم تزودنا المصادر العربية، مع الأسف الشديد بمعلومات من شأنها أن تبين لنا طرق الصيد ولا أنواع الأسماك التي كانت تشكل الغذاء الرئيسي لسكان رباطات جبل أدار، جنوب تونس[24]، والمنستير، بين سوسة والمهدية، وشقانص، بين المنستير والمهدية[25] باستثناء سمك يسمى "حوت قلفط" اشتهر على ما يبدو في المنستير[26].

وينفرد صاحب كتاب الاستبصار (ق 6 هـ/ 12م) بالقول : إن الحوت يتوالد في البحر ثم يغادره صغيرا، لا يتعدى قدر اللوزة إلى بحيرة بنزرت ليكبر فيها، وعندما يأتي وقت سفاده وولادته (تكاثره) يعود من حيث أتى، وهناك يترصده الصيادون، عند خرج البحيرة ويصطادونه[27]، وهذا يدل على أن الصيادين آنذاك كانوا منتبهين إلى أن فترات السفاد والولادة أي التسرئة (Frai) مهمة جدا للصيد.

وكانت هذه الظاهرة تتسبب إما في اختفاء مؤقت لأسماك الشواطئ التي تبتعد عنها وإما بتوافد أنواع مختلفة، في أوقات معينة من السنة، فينتهز الصياد تلك الفرصة ويتربص بها للحصول على غنائم مثمرة منها، فمشاهدة تلك العادات هي التي جعلت الصيادين يعدون لها مصيدات ثابتة، في البحيرات، ومعرفتها تعطي الصياد

المجرب إرشادات عن مرورها وعن ندرة بعض أنواعها، وعن الوقت الملائم لصيد أفضل العينات، قبل التسرئة[28].

ويبين .Fagnan E، مترجم كتاب الاستبصار إلى الفرنسية، أن هناك خلافا، بين نصّين معتمدين في ترجمته وهما النص الذي اعتنى بطبعه .Kremer A ومخطوط الذي اعتمد عليه هو، إلى جانب نص ط.Kremer : ففي حين ورد في الأول، فيما يخص الصيد ببحيرة بنزرت : "فيصاد بالنقارة كما يصاد الحمام"، ورد في مخطوط" A" " فيصاد في المجد (au seuil) الذي بينهما، أي بين البحر والبحيرة، ومنه ما يصاد بالنقارة"[29]، ويرجح A. Fagnan ما ورد في مخطوط وعلى أساسه كانت ترجمته، ولم يأخذ بنص Kremer الذي يربط عملية الصيد بالنقارة، في كل الحالات، حتى عند "المجد".

مع العلم أن نص Kremer يتفق عموما مع مضمون ما أورده كل من البكري والزهري، حيث يذكر الأول أن الصيد يأتي "بحوت يقال إنه أنثى الصنف المعروف بالبوري ثم يتبعها بشبكته" ليخرج ما شاء من السمك[30] ؛ ويعلق Vonderheyden عما جاء في قول البكري من أنه عندما يأتي التجار إلى الصياد لشراء السمك يطلب منهم أن يحددوا نوع وعدد الأسماك التي يريدونها ليصطادها لهم موضحا أنّ ذلك يبدو متناقضا مع المعلومات التي تفيد بوجود صنف واحد في البحيرة، في الشهر الواحد، لا غير[31].

ويذكر الثاني، أي الزهري، أن الحوت في هذه البحيرة يصاد بالنقارة، وهي تسمية تطلق على أنثى أيّ نوع من الأنواع التي تظهر بها منه، فيوثق منها عدد في السنانير والاخياط ثم يلقي بها في البحر ليجتمع عليها الحوت، وعندها يرمي الصيادون عليها صراريح (شباكا) ويأخذوا منها كميات كبيرة[32].

والملاحظ هنا أن نص ط.Kremer لكتاب الاستبصار يوفق بين ما أورده المصدران السابقان، ويضيف معلومات جديدة، منها : أن الحوت يصطاد، عند خروجه من بحيرة بنزرت إلى البحر الأبيض المتوسط وأنه يصطاد بالنقارة أو النقازة❖ كما يصاد الحمام، والنقارة، حسب رأيه هي أنثى حوت البوري، وهو هنا يتفق مع البكري ويختلف مع الزهري ثم يشرح أخيرا كيفية الصيد بها : إذ يكون ذلك بربط خيط في خرص❖❖ وثيق في شفتها ويلقى بها في البحر لتسير ويتبعها الصياد بزورقه وشبكته، وعندما تدور عليها الذكور يَرمي عليها الشبكة، ويُخرج ما تيسر ثم يعيد الكرة إلى أن يكتفي[33].

وقصة الصيد بطريقة النقارة، حسب Vonderheyden، ليست خرافية لدرجة كبيرة، إذ ما يزال صيد الحُبار يتم حتى الآن بنفس الطريقة المسماة " الصيد بالأنثى"[34].

ويختلف ابن زنبل عن كل هؤلاء بقوله : يحكى أن إناث الحوت تظهر كل شهر، ولما يجتمع حولها الذكور يلقي الصيادون

عليها شباكهم فيصطادون كميات كبيرة[35]، ويتضح وجه الخلاف هنا في كون الْتفاف ذكور الحوت حول إناثه يحدث، حسب هذه الرواية تلقائيا لا دخل للصيادين فيه على عكس رواية المؤلف المجهول، ويختار Vonderheyden من كلام هذا الأخير "فيصاد في المجد (Seuil) الذي بينهما (أي بين البحر والبحيرة) ومنه ما يصاد بالنقارة "فيترجمه كما يلي : " on prend surtout le poisson au seuil qui sépare la mer du lac de Bizerte" أي "فيصاد السمك، على الخصوص، في المجد الذي بينهما" بمعنى أنه أضاف في ترجمته كلمة "على الخصوص" (Surtout) مما يؤدي، ولا شك إلى تغيير المعنى الذي يقصده صاحب النص الأصلي.

المهم أن المقصود من هذا الكلام، حسب Vonderheyden، هي المصيدة (La bordique) أي ما أسماه ابن حوقل بالحظائر المزربة، وما أطلق عليه هو الزروب ويرى أن مصائد الأهالي الحالية، كما وصفها gruvel، تبدو أكثر تطورا بالنسبة لمثيلتها في العصر الوسيط، وأن تسميتها تتغير، من منطقة إلى أخرى : وتنتشر زروب الأهالي (Indigènes) بصفة خاصة في مناطق جربة وصفاقس وقرقنة وبحيرات : بنزرت وإشكال وتونس[36].

ويطلق تسمية الزروب، في الطرف الآخر من السواحل المغربية، صيادو تطوان، على آلة شبيهة بزروب ابن حوقل والوزان، أكثر مما هي شبيهة بالزروب التونسية، إذ يفيد joly M.، حسب

Vonderheyden أن سكان تطوان يصطادون الشابل والبوري، في النهر، بزروب مثبتة، عند مخرج حفرة في مجرى الوادي ؛ ويدخل رجل قبلها (à l'amont) ويحدث ضجيجا فيطرد الأسماك نحو الخلف (L'Aval)[37].

ويمكن التقريب، في نظر نفس المؤلف، بين الصيد بالزروب والصيد بالبشكيرة الذي يمارس، حسب Brunot M. في الصويرة (Mogador) "حيث يبنى جدار على قعر (fond) منبسط، من حجر جاف (sèches) يغطيه مدّ البحر (Marais haute) كلية. .. وعند حدوث المدّ تتقدم الأسماك نحو الأرض، خلف الجدار، وعندما يتراجع البحر أي عند الجزر يتسرب الماء بين الأحجار، وتبقى الأسماك مأسورة، دون ماء، في أغلب الأحيان، بين الجدار والشاطئ"[38].

ويتساءل Vonderheyde عما إذا كانت هذه الطريقة معروفة في نهاية (au fond) خليج قابس، وفي نواحي طرابلس، على الرغم من أن المدو الجزر، هناك، أقل حساسية منه في المحيط الأطلسي بدرجة كبيرة

مع ملاحظته بأن السكان المجاورين لساحل طرابلس الذين كانوا قديما عند نهاية سيرت الصغرى، في عهد سترابون (Strabon) يحتقرون الشباك والرمح، ويفتخرون بأنهم ينتظرون وقت انخفاض ماء البحر، بعد مدة ؛ للانطلاق خلف الجزر، والقبض بسرعة فائقة، على الأسماك مباغتة، فوق الرمل المكشوف، وهي تحاول الوصول

إلى الماء، ويتساءل Vonderheyden أخيرا، عما إذا كانت الأجيال اللاحقة قد تخلت عن ممارسة صيد مريح لهذا الحد، أم أن نظام المدّ والجزر قد تغير، بدرجة كبيرة، منذ عهد سترابون[39].

في شأن صيد المرجان (Le corail)، أوردت المصادر أنه كان يتم عادة صيفا، من شهر مايو إلى شهر أكتوبر، وقد يستمر طول السنة، لكن في هذه الحالة، ينبغي أن يأخذ الصيادون في الحسبان الوقت وحالة البحر الذي قد يعيق حركة الصليب المستخدم في الصيد[40]، ويقدر ابن حوقل (ق.4 هـ/ 10م) عدد القوارب التي كانت تستخدم، غالب الأوقات، في إثارة (إخراج) المرجان بخمسين قاربا وأكثر، ويصعد على متن كل قارب حوالي عشرين رجلا[41].

وقد حاول المقدسي وصف طريقة استخراجه من البحر فذكر أن العاملين في هذا الحقل يلفون على صلبان من خشب شيئا من الكتان المحلول ويربطون في كل صليب حبلين، يأخذهما رجلان، يرميان الصليب في البحر، في حين يشرع النواتي (Le rameur) في الدوران بالقارب، ولما يتعلق الصليب بقرن المرجان (banc de corail) يجذبونه فيخرجون ما تتراوح قيمته ما بين عشرة آلاف وعشرة دراهم[42].

ويذكر صاحب كتاب الاستبصار أن البحارة يلقون على الصلبان جرّات (bourse) الكتان أو القتم (Chanvre) ويثقلونها بمرَاس (Ancres) ليلقوا بها في البحر، ويمشون بالزوارق فيسحب ذلك

الكتان على قعر البحر ويكسر ما اعترض طريقه من مرجان ويتعلق بعضه في ذلك الكتان فيأخذونه، ويضيع بعضه الآخر في البحر، وهناك من ليس له، من الناس، حرفة سوى استخراجه[43].

وهناك طريقة تقوم، حسب الإدريسي، على اصطياد المرجان بآلات (outils) ذات ذوائب (mèches) كثيرة من القنب، وتدار تلك في أعلى المركب فتلتفّ الذوائب (الخيوط) على نبات المرجان القريب منها، وعند ذلك يجذبه ركاب القارب إلى أنفسهم مستخرجين الشيء الكثير منه مما يباع بالأموال الطائلة[44].

وقد أضاف القزويني بعض التفاصيل، فيما سجله، عمّا حكاه له شاهد، عن كيفية استخراج المرجان، منها أن طول كل خشبة من الخشبتين اللتين يتخذ منهما الصليب، ذراع واحد، وبعد صنع الصليب يشدّ فيه حجر ثقيل ثم يوصل بحبل، ويلقى فوق منبت المرجان بالبحر حتى ينتهي إلى (قعره) قراره ويوجّه القارب يمينا وشمالا ومستديرا ليتعلق المرجان في ذوائب الصليب، وعندها يُقْتَلَع بقوّة[45].

وكان العاملون في حقله يجنون، حسب ابن حوقل، أرباحا طائلة جعلتهم يكثرون الأكل والشرب والخلاعة، وقد كانوا يتعاطون نبيذ العسل فيُسكرهم كثيرا ويسبب لهم صداعا أشد من صداع نبيذ الذرة وغيره من الأشربة[46].

وقد منح حكام تلك النواحي حق صيد المرجان إلى شركات أوربية منذ فترة مبكرة، رغم أن سكانها لم ينظروا إلى هذا الأمر

بعين الرضى، ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي (1167م) والثالث عشر أخذ البناذقة يصطادونه ثم تلاهم الجنويون، وفي سنة 1286م تعرضت مرسى الخرز لغارة قام بها عليها Loria Rogerوبعدها انقطعت المعاملات بين الطرفين[47].

وينقل Vonderheyden عن Féraud، من كتاب تاريخ بجاية أسطورة مفادها أن السلطان الحمادي الناصر، مؤسس بجاية، تنازل عن العرش لصالح ولده المنصور ثم اختفى ليلا، وذلك لان الوالي، سيدي تواتي، أظهر له ذات يوم، من خلال ثقب برنوسه، أثناء جولة في قارب، مدينة بجاية، وهي ممزقة مخربة، (تجسيد مسبق لسقوطها القادم) ؛ واستمر البحث عنه مدة أربع سنوات، وفي النهاية عَثَر قاربُ صيد، صدفة، ذات يوم بجزيرة جريبيه (جزيرة البنادقة) على زاهد عارٍ تقريبا، نَحيلِ الجسم، هو السلطان نفسه، وكان قد عاش تلك المدة كلها في تلك الجزيرة على السمك، إذ كان كلما غطس يدَه في البحر تعلقت سمكه بكل أصبع من أصابعه، واستمرت إقامته هناك إلى أن توفي[48].

وقد يتساءل المرء عن الأسباب التي جعلت Vonderheyden يكلف نفسه رواية هذه الأسطورة في بحث من المفروض أن يكون علميا ؟

والإجابة عن مثل هذا التساؤل بسيطة للغاية، إنّ الغرض من ذلك هو استنتاج فكرة تهكمية مفادها أن "بعض الشخصيات، من أصحاب الحظوة السماوية، لم يكونوا في حاجة إلى آلات صيد...

وبالنسبة لأغلبية البشر فلا يكفي غطس اليد في الماء لأخذ السمك وإنّما يتطلب الأمر آلات لذلك"[49].

وجاء بكل هذا لغرض تدعيم فكرته التي لخص بها بحثه وهي أن "بساطة (Rudicité) الآلات حالت دون القيام بعمليات صيد واسعة النطاق وأن الاصطياد لم يكن يتم في عرض البحر بل كان يتم، غالبا، على الشاطئ، وخاصة في زوايا المياه الراكدة والأعماق البسيطة والبحيرات الشاطئية (باستثناء صيد التن بالمضربة (Madrague) والرماح (harpon) ؛ وأنّ الآلات الرئيسية المستعملة هي خيط ذو سنارة (ligne)، بالقصبة أو بدونها، وشبكات بسيطة (Rudimentaire)، وقد خصصت مكانة معتبرة لصيد الزروب، سواء في الأودية أو في البحيرات الشاطئية (lagunes) أو في الخلجان الصغيرة المحمية"[50].

غير أن Vonderheyden كما يلاحظ اكتفى بالتوقف، في هذه الأسطورة، عند الجانب الذي يخدم فركته وقد خفي عليه أو أهمل جانبا آخر لا يخدمها، ويتعلق الأمر بقارب الصيد الذي عثر على السلطان بجزيرة البنادقة والذي يمكن أن يقوم دليلا على ممارسة الصيد، في عرض البحر، وليس فقط في الأماكن التي عدّدها Vonderheyden والموضوع ما زال في حاجة إلى بحث، ولعل مبرر قلة المادة فيه يعود إلى كونه كان يتم بعيدا عن أعين الناس، ومن بينهم المؤرخون والجغرافيون، وقد يقتحم الأثريون هذا المجال في المستقبل ويساهمون في توضيح هذا الجانب التاريخي الحضاري المهم.

ويفيد الوزان أن سكان مدينة باديس يعتمدون في عيشهم على السردين بالدرجة الأولى وأسماك أخرى معها، وكان الصيادون يصطادونها بكثرة لدرجة أنهم كانوا يحتاجون إلى مساعدات بعض الأشخاص لإخراج شباكهم من البحر، لهذا كان فقراء الناس يتوجهون عادة، كلَّ صباح إلى الشاطئ لمساعدتهم في مقابل أن يحصلوا على نصيب وافر من السمك يأخذونه ويوزعونه على كل الذين يوجدون بعين المكان[51].

ويتفق كل من الزهري وابن زنبل على أن سمك التن يصطاد، عند أول خروجه ببلاد الأندلس، وفي جزيرة كريت التي تصل إليها رحلته، وفي أول يونيو يعود إلى مكانه، مرورا بمضيق جبل طارق، فيصاد عند طرف الفخ، وهو طرف جبل طارق أو جبل الفتح، ويصاد ما دخل منه في جوز (خليج) مريلة ومليلة بالشباك، وما خرج منه على طرف الفخ إلى ساحل المغرب يصاد في المكان المسمى تامسان أو منتاز، من عمل سبتة ؛ وأمّا ما شق منه على وسط المضيق، شرق جزيرة طريف، فلا يتمكن منه بل يعود من حيث أتى، ولا يغادر مكانه إلاّ في نفس الشهر من السنة الموالية[52].

أما طريقة صيده فزيادة عن استخدام الشباك التي يتحدث عنها المصدران السابقان فإن الإدريسي يشير إلى استخدام رماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب (ترشق) في الحوت ولا تخرج، وفي أطراف عصيها شرائط (حبال) طوال من القنّب، ومهارة صيادي

سبتة بالرمح لا مثيل لها[53] ؛ ويعتقد Vonderheyden أن هناك طريقة صيد تتطلب نزهة صغيرة في عرض البحر، لا بدّ وأن تكون قد عرفت، على الرغم من أن المصادر لا تتحدث عنها بصراحة : إنّها المضربة (La madrague)، وهي عبارة عن شبكة معقدة إلى حدّ ما، ومفصلية، وتنصّبُ عموديا على الشاطئ (rivage) لتوقيف مرور التنّ، وقد تكون طريقه قديمة جدّا، لأن التنّ كان يصطاد في فترة التاريخ القديم وخاصة في منطقة صقلية، أثناء رحلته نحو الشرق للتسرئة، حيث يقترب كثيرا من الشواطئ (من 700 إلى 1500م)، وقد قدّر عدد أسماك التّن المصطادة في مضربة مدينة بنزرت سنة 1846 بأربعة إلى خمسة آلاف سمكة سنويا، والآلات التي ما زال الصيادون يعملون بها، وعادات الحيل المرتبطة بها، لا يبدو أنها تغيرت منذ قرون[54].

ويلاحظ نفس المؤلف أن كلمة Madrague الفرنسية مأخوذة من almadraba الاسبانية المنبثقة عن المضربة العربية، وتعني مكان الضرب، إذ أن الأسماك، عندما تستدرج إلى ما تطوله يد الإنسان من الشاطئ تتعرض للضرب بكل قوّة الذراع (à tour de bras) بالفؤوس (haches)" وسرعان ما تغطي الشاطئ جثث دموية مثلما يحدث في معركة شنيعة[55] كما يُضرب أيضا عن بعد، مثلما ذكر الإدريسي.

ويرى .M lombard أن الصيد كان يمارس إما بالرّمح (harpon)، كما يحدث في أيامنا بمضيق صقلية، وإمّا بالمضربة أي

مجموعة من الشباك الثابتة، توجه إليها أسراب التن وتسمى هذه الشباك (Tonnaria) حاليا في صقلية، والمضربة عبارة عن قفة، على شكل قارورات (bouteilles) ذوات أعناق (goulots) ضيقة[56].

ويتفق الزهري وابن زنبل أيضا على القول من أنّه : ليس في البحر حوت أسمن ولا أطيب من التن، ولا يعرف لماذا يذهب الأول إلى القول إنه "لا يؤكل في معمور الأرض طريا إلا في الأندلس" ويضيف الثاني إلى الأندلس المغرب "قرب سبتة" مع أن المصدرين يتفقان على أنّه كان يصطاد بكثرة في جزيرة إقريطش (كريت)، على سبيل المثال، وهل يعقل أن يصطاد بكثرة في مكان ما ولا يؤكل منه طريا ؟

- **صناعة تمليح الأسماك وتصبيرها**

كانت ببلاد المغرب، في فترة التاريخ القديم ورشات (fabriques) التمليح (Tarikhefai)، إذ أن رحلة سيلاكس (périple de Scylax) أشارت إلى ذلك، عند مدخل بحيرة البيبان، جنوب تونس، حيث كان على الساحل الغربي من سرت الكبرى مكان يسمى مدينة الملاحات (Maqom Malehat)❖، كما كانت هناك ملاحات في المنستير (Monastir) وفي رأس قبودية (capoudia) بقابس ولبدة، وكانت قرطاجة تستقبل أسماك مملوحة، قادمة من قادس (cadix) في أوعية (vases)[57].

وقد استمرت هذه الصناعة قائمة في جهات مغربية كثيرة : إذ يتفق أبو عبيد البكري مع صاحب كتاب الاستبصار في حديثهما

عن تصبير أو تمليح كل أنواع الأسماك التي كانت تصطاد حسب رأي الأول من بحيرة تونس، وهي أثنا عشر نوعا، يظهر كل نوع منها في شهر معين من الأشهر الأعجمية (ميلادية) ثم يختفي ليظهر في السنة الموالية، مع ملاحظته أن السمك المصنع يبقى سنوات صحيح الجرم، أي لا يتغير لونه ولا طعمه[58] مما يدل، بدون شك، على إتقان تلك العملية وهو يقوم دليلا، بطبيعة الحال، على نضج التجربة.

أو أن كل نوع من تلك الأنواع كان يُصاد، حسب رأي الثاني، في بحيرة بنزرت[59]، المهم أن لحومها كانت تصبر، وتبقى، في رأيه، لذيذة الطعم، لسنوات عديدة وتصدر إلى جميع مناطق إفريقية وخاصة إلى مدينة تونس، مع ملاحظة أن غلتها كانت عظيمة[60] أي أن مردودها كان كبيرا "وكل نوع منها، إذا خرج في شهره يكون طيبا سمينا"[61]، وقد بلغ نصيب بيت المال، أي الضريبة التي تفرضها الدولة على الصيادين بتلك البحيرة، في عهد القزويني (ق7هـ /13م) اثني عشر ألف دينار سنويا[62]، كما كانت في عهد ابن ونبل (ق.10هـ /15م) حراسة خاصة تابعة لأمير تونس، تقيم قرب البحيرة، ومهمتها جمع نصيب بيت المال من عائدات صيد الأسماك[63].

ولم يكن البوري الذي يصطاد من بحيرة درنه التابعة لولاية باجة، حسب كل من البكري وصاحب كتاب الاستبصار، يوجد في مكان آخر، حيث يمكن إخراج عشرة أرطال شحم وأكثر من حوت واحد منه، إذا كان كبيرا[64]، وكان أهل تلك النواحي

يستعملون ذلك الشحم في مصابحهم[65] كما كان هذا البوري أيضا يحفظ في العسل، ويرسل إلى الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي في كل من القيروان والمهدية فيصله طريا، حسب البكري[66] الذي لم يتحدث، كما لم يتحدث غيره من أصحاب المصادر العربية، عن حالات أخرى لحفظ الحوت في العسل، عكس ما ذهب إليه عز الدين احمد موسى من أن السمك كان "يحمل. .. إلى المناطق الداخلية طريا، محفوظا في العسل أو مجففا"[67] مع العلم أن تكلفة الحفظ في العسل، لا شك، وأنها كبيرة جدا لدرجة يصعب على المستهلكين تحملها.

ولا تتحدث المصادر أيضا عن تمليح الأسماك أو تصبيرها ببجاية، في هذه الفترة، ولكن ما نقله Vonderheyden عن Maslatrie[68] من أن الأسماك المملوحة كانت، حوالي 1350م، ترسل، من سواحل بلاد البربر (بجاية)، إلى أوربا، يوحي بأن هذه الصناعة كانت موجودة قبل ذلك هناك، وقد كان منتوج السّرة البربرية(La Sorra de Barbarie) يحظى بتقدير خاص من الأربيين، وهو عبارة عن بيض التن المملوح وأمعائه ؛ وهناك احتمال كبير أن يكون كافيار بيض البوري (caviar d'œufs de mulet) معروفا ببجاية آنذاك، فهذه المادة (substance) تسمى Boutargue وهي كلمة مأخوذة من كلمة بطارخ العربية، ويسمى أيضا poutargue[69] وتطلق كذلك على مبيض (Ovaire) التن[70].

ومع أن عملية الصيد كانت مزدهرة في كثير من الأماكن الواقعة غرب بجاية إلا انه ليس هناك ما يشير إلى وجود صناعة التصبير أو التمليح بها، رغم أن سكان مدينة تادلس (دلس)، بصفة خاصة، كانوا كلهم، كما رأينا، يصطادون حوتا كثيرا بالشباك، عادة، حتى أنه لا يكن يباع أو يُشتري، لكثرته، فَيعطَي مجانا لمن يرغب فيه[71] وعلى العكس من ذلك فإنّ مدينة باديس (Bédis) التي يعيش سكانها، حسب نفس المصدر، على السّردين، إضافة إلى أسماك أخرى، كانوا يملحونها ويبعثون بها إلى الجبال[72].

وكان يسكن مدينة ترغة، الواقعة على خمسين ميلا، شرق مضيق جبل طارق، صيادون تعودوا على تمليح السمك المصطاد وبيعه لتجار الجبال ليحمل برّا إلى مسافة عشرين ومائة ميل (200 كلم) تقريبا إلى أنّ حال تلك المدينة أخذ يتدهور منذ أن احتلها البرتغاليون سنة 1502م[73].

ومما أفادنا به القزويني أن يهود سبتة، كانوا يقددون سمك موسى (La Sole) ويحملونه إلى الأماكن البعيدة للهدايا[74]، كما كان سمك التّن يبس (يجفف) ليدخر، ويصدر إلى سائر بلاد المغرب[75] وإلى سائر البلاد بأوفر ثمن في زمن العنب والتين[76].

ويصطاد بوادي سبو، حسب صاحب كتاب الاستبصار، سمك الشابل (L' alose) الذي يصعد إلى منبعه بجبل وارتين أو يقترب منه[77]، وهذا الوادي هو نفسه وادي المعمورة، حسب ابن سعيد المغربي

الذي يقول إنه يتواجد، عند اختلاط الماء المالح بالحلو، أي عند مصبه، مضيفا أنه يصدر إلى جميع الأقطار[78].

وكان صيد المرجان مصدرا معتبرا للثروة، في بعض نقاط السواحل الجنوبية من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، إذ كان يستعمل كحليّ للسيدات منذ العهد الروماني، أيام بُليبْيُوس، كما استخدمه صيّاغو العصر الوسيط استخداما واسعا، وكانت ترسل منه كميات كبيرة لبلاد المشرق كي تصنع به السبحات، على سبيل المثال[79].

ويفيد ابن خرداذبه (نهاية القرن التاسع ميلادي) أنه كان يصدّر "من عمق بحر الروم، المجاور لبلد الافرنج، السبد (Le sebed)، وهو الجوهر المعروف عادة باسم المرجان"[80] ويذكر المقدسي أنّ المرجان كان يُجلى، بعد استخراجه، بأسواق، في ورشات خاصة ثم يباع جزافا(جملة) وبرخص[81].

وكانت لبعض التجار، من مختلف الأقطار، أموال عند سماسرة متخصصين في شراء المرجان، وبيعه[82] كما كان البعض الآخر يستأجرون أهل نواحي القالة على استخراج المرجان أي صيده[83].

وكان يصدر إلى جميع بقاع العالم، المعروفة آنذاك، وهو أنفق (أغلى) شيء في الهند والصين[84] والمرجان الذي كان مطلوبا أكثر هو الأحمر لكن الأسود والأبيض يصنّعان أيضا[85]. ويشير الإدريسي إلى وجود سوق (ورشات) بسبتة لتفصيل المرجان وحكه وصنعه خرزا

(Joyaux) وثقبه وتنظيمه، ثم يُسافَر به إلى مختلف الجهات، وبالأخص غانة وجميع بلاد السودان، حيث كان يستعمل بكثرة[86].

وكان لسلطان المغرب، حسب ابن حوقل، " أمناء" يراقبون حصيلة ما يستخرج من المرجان، وناظرُ كان من بين مهامه "ما يلزم مما يخرج من هذا المعدن"[87] ؛ ويقدر البكري جباية مرسى الخرز بعشرة آلاف دينار[88] غير أن القزويني، فيما بعد، ذكر أن ليس للسلطان فيه حصة[89].

فصيد الأسماك إذا كان ممارسا في أماكن كثيرة من سواحل بلاد المغرب المتوسطية، وكانت صناعة التمليح والتجفيف قائمة في جهات كثيرة من هذه المنطقة منذ العهد الفينيقي مما ساعد على تصدير عدة أنواع من الأسماك إلى المناطق الداخلية وحتى إلى خارج حدودها، وبالأخص المرجان، بعد تصنيعه، ويمكن القول، أخيرا، أن المعلومات التي زوّدتنا بها المصادر العربية، رغم قلتها، استطاعت أن تقدم دليلا كافيا على ازدهار حرفة الصيد، بين سكان السواحل المغربية من عرب وبربر، في العصر الوسيط، عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين الأوروبيين، وعلى رأسهم Venderheyden.

الهوامش :

(1)- La pêche sur les cotes barbaresque au M. Âge, P.3

(2)- Id

(3)- op. cit.,pp.3-4

(4)- Vonderheyden, Op. cit,p.4

(5)- Ibid, pp.4-5

(6)- L'Afrique Blanche, T.1, l'Afrique du Nord, Presses Universitaires de France, Paris 1964,P.459

(7)- Histoire économique du Maghreb, Handbuch der orintalistik, Erst.PP.210-211

(8)- la pêche et la vie martine au néolithique en Afrique du nord, Bulletin d'Archéologie marocaine, T.III, 1958-1959, P.15

(9)- Sowille G., op. cit., P.15.

(10)- Ibid, p.17

(11)- Id,note5.

(12)- doumenge M. F. : Problème de la pêche en Méditerranée occidentale, Bulletin de l'association de géographes Français, n°=276-277,Juin- Juillet1958,P.7

(13)- Ibid, pp. 7-8.

(14)- op,cit, p.8

(15)- Ibid., p.6

(16)- op. cit.,pp.19-20

(17)- Ibid,p.20,note1

(18)- Léon L'African J. : Description de l'Afrique, Traduit de l'Italien par A. Épaulard et annoté par A. Epaulard et autres, nelle éd, paris 1980,T.2, pp.399-400.

(19) – صورة الأرض، ط، بريل 1967، ص 71.

(20)- Vonderheyden : op.cit.,p.22

(21)- op.cit., pp.22

(22)- Description de l'Afrique , T.2, p.394

(23) – المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للادريسي، حققه ونقله إلى الفرنسية، محمد حاج صادق، الجزائر 1983، ص142 ؛ الترجمة الفرنسية، 130.

(24) – أنظر البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ط بغداد، ص 84.

(25) – أنظر ابن حوقل : المصدر السابق، ص 73 ؛ الوزان op.cit., T.2, p.391

(26) – أنظر المالكي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضلائهم وأوصافهم، نشره حسين مؤنس، القاهرة 1951، ج.1، ص 422 فما بعدها.

(27) – مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار، نشر النص العربي Afred de Kreme، ط، فيينة 1852، ص 16

(28) - أنظر Borre A. : la pêche sur les côtes septentrionales de la Tunisie, presses universitaires de France, Paris 1956,p.24

(29) – أنظر : L'Afrique septentrionale au XIIe siècle de notre ère, description extraite du Kitab- el- istibçarn traduite par E. Fagnan, canstantine 1900, p.27, note1.

(30)- البكري : المغرب، الترجمة الفرنسية Macguckin de Slane : Description de l'Afrique seppentrionale par Abou-Obeid el-Bekri, Pari1965, P.123.

(31)- op.cit., p.24.

(32) – كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، الجزائر 1982.

(❖) – كتبت النقازة في ط Kremer والنقارة في نخطوط "A" (E.Fagnan : op.cit,p.27, note1) ؛ وكتبت النقارة في نص الزهري (Id) مما يرجح الكفة لصالح استعمال كلمة النقارة.

(❖❖) – كتبت هذه الكلمة في نص Kremer خرش، وكتبت جرش في مخطوط"A" غير ان Fagnanيرى أنه بالامكان التفكير في كلمة خرص وتعني عصا (Baton) أو ساقا(tige) (op. cit.,p.27, note2)

(33) – مؤلف مجهول، ص16، الترجمة الفرنسية (E. Fagnan : op. cit.,p. 27)

(34)- op. cit., p.24

(35)- extraits relatifs au Maghreb, trad, de larabe et annotés par E. Fagnan, Alger 1924, texte arabe, p.55

(36)- op. cit.,p.22.

(37)- op,cit., pp. 22-23.

(38)- Ibid., p.24

(39)- Ibid, pp.24- 25

(40)- A. Borrel : op.cit.,p.27

(41) – صورة الأرض، ص75

(42) – Al- Muqaddassi : Description de l'Occident musulman au IVe Xe s, p.48 et 50, Trad.Fr, par Gh Pellat, Alger 1950, والنوتي الملاّح الذي يدير السفينة في البحر (ابن منظور لسان العرب، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط، بيروت 1988، جـ6، ص738).

(43) – مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار ص16-17 ؛ الترجمة الفرنسية E.Fagnan : op. cit., pp. 28-29 ؛ يلاحظ هنا خطأ في الترجمة إلى الفرنسية حيث ترجمت عبارة " فينكسر المرجان ويتعلق بالكتان فيفتقدونه ويأخذون ما تعلق منه"بـ" "et bise les coraux, qui s'y attachent et ou ensuite on les recherche..."

(44) – المغرب العربي، ص 153 ؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص141.

(45) آثار البلاد وأخبار العباد، ط، دار صادر، بيروت، ص 261

(46) – صورة الأرض، ص 75، الترجمة الفرنسية J.H. Kremer et G. Wiet : op. cit.,p 71.

(47)- Vonderheyden : op. cit., p. 31
(48)- op.cit., p.25.

(49)- Id

(50) - Vonderheyden : op. cit., p. 26
(51)- op. cit., T.1,p.27

(52) – قارن الزهري : كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق نشره L'institut française de Damas, Bulletin ; Ibn Zenbel : op. Cit., pp. 188- 189 ; d'études orientales, T. XXI, année 1968, p.120,

(53) – المغرب العربي، ص 183، الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 165.

(54) - Vonderheyden : op. cit., pp. 20-21.
(55)- op, cit., p.21.

(56) - Vonderheyden : op. cit., P.27.

(❖) – حسب Vonderheyden فإن هذه التسمية يمكن أن تكون عربية، فالعرب الساميون مثل الفنيقيين، وجدوا بإفريقية آثار لغة قريبة جدا من لغتهم (op. cit., p. 27, note1)

(57) – أنظر Vonderheyden : op. cit., p. 27

(58) - المغرب، ص 41 ؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane ; op. cit.,p.89

(59) - مؤلف مجهول : ص. 15 ؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op. cit., p. 26

(60) – نفس المصدر، ص. 16، الترجمة الفرنسية Vonderheyden : op. cit., p. 27, Ibid, p.27

(61) – الزهري : المصدر السابق، ص. 108.

(62) – أنظر، آثار البلاد، ص. 148.

(63) – Tohfat et Molouk,p. 155

(64) – المغرب، ص. 55 ؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op. cit.,p.121 ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص. 17 ؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op. cit., p.29.

(65) – مؤلف مجهول : نفس المصدر، ص17 ؛ الترجمة الفرنسية E. Fagnan : op. cit.,p. 29 ؛ وقد صحح Fagnanكلمة ومصائبهم الواردة في ط، كريمر Kremerبـ " ومصابحهم " الواردة في مخطوط "A" (op. cit.,p.29,note3)

(66) – المغرب، ص. 55 ؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de Slane : op. cit., p.21

(67) – أنظر : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق بيروت، القاهرة، 1403هـ/ 1983م

(68)- Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes, p. 373.

(69) – انظر : Vonderheyden : op. cit., p. 27

(70)- Id, note6
(71)- Description de l'Afrique, T.2, p.352
(72)- Ibid, T.1,p.275
(73)- Ibid, T.1,p.274, note 534

(74) – آثار البلاد، ص 201

(75)- Ibn. Zenbel : op. cit., p. 189

(76) – ابن سعيد لمغربي : كتاب الجغرافيا، ص 111.

(77) – مؤلف مجهول : ص 73 ؛ الترجمةالفرنسية E. Fagnan : op. cit., pp. 129- 130

(78) – كتاب الجغرافيا، ص 138

(79) – أنظر Vonderheyden : op. cit., p. 29

(80) – نقل النص من Journal asiatique, 1865, T.1, p 464 (انظر : Vonderheyden : op. cit., p.27)

(81)- Al – Muqaddasi : op. cit., texte le arabe, p 48 et 51, trad. P. 49 et 51.

(82) – صورة الأرض، ص 75.

(83)- القزويني : آثار البلاد ، ص 261.

(84) – مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص 16- 17 ؛ الترجمة الفرنسية
E. Fagnan : op. cit., pp 28-29

(85)- Vonderheyden : op. cit., p. 32

(86) – المغرب العربي : 183 ؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص 165 ؛ انظر Vonderheyden : op. cit., p. 31 حسب Mauny، فقد كان يصدر خاما إلى بلاد السودان أيضا (Tableau géographique de l'ouest africain au Moyen –Age d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, mémoires de l'institut français de l'Afrique, N°=6, Dakkar 1961, p. 371)

(87) – صورة الأرض، ص. 75.

(88) – المغرب، ص. 55.

(89) – آثار البلاد ، ص. 261.